

صدقوك وآمنوا بك آمناً بك، فلما كان الغد عدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم: «إنكم والله لا تؤمنون عندي إلا بعد تعاهدوني عليه»، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم عدا من الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه، فانصرف عنهم، وعدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء فجلبت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها، فقال تعالى: «وما آفاه الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب» يقول بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار، وكانا ذوي حاجة ولم يقسم من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني قاطمة.

وقوله تعالى: «ما ظننتم أن يخرجوا» أي في مدة حصاركم لهم وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتهم، ولهذا قال تعالى: «وظننوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا» أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال كما قال تعالى في الآية الأخرى «وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون»، وقوله تعالى: «وقل في قلوبهم الرعب» أي الخوف والهلع والجزع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصروهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: «يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين» هو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وحملها على الإبل، وقال مقاتل بن حيان: كان رسول الله ﷺ يقاتلهم، فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال، وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أديارها، ثم حصنوها ودبروها، يقول الله تعالى: «فاعتبروا يا أولي الأبصار»، وقوله: «ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعلبهم في الدنيا» أي لولا أن الله كتب عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك، لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير قال: ثم كانت وقعة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم بناحية من المدينة فحاصروهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهي السلاح، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام، قال: والجلاء أنه كتب عليهم في أي من الثروة، وكانوا من سبط لم يصيبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله فيهم: «سبح لله ما في السموات وما في الأرض» إلى قوله: «وليعزي الفاسقين»^(١)، قال قتادة: الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد، وقال الضحاك: أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بغيراً وسقاء فهذا الجلاء، وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ قد حاصروهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم: فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام، وجعل لكل ثلاثة منهم بغيراً وسقاء، والجلاء إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى. وعن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني النضير، وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام.

وقوله تعالى: «ولهم في الآخرة عذاب النار» أي حتم لازم لا بد لهم منه، وقوله تعالى: «ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله» أي إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين، لأنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم، ثم قال: «ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب»، وقوله تعالى: «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليعزي الفاسقين» اللين نوع من التمر وهو جيد، قال أبو عبيدة: وهو ما خالف

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

العجوة والبرني من التمر، وقال كثيرون من المفسرين: اللينة ألوان التمر سوى العجوة، قال ابن جرير: هو جميع النخل، وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصره أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرعاباً لقلوبهم، فبعت بنو قريظة يقولون لرسول الله ﷺ إنك تنهي عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة، أي ما قطعتم من لبنة وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشينته وقدره ورضاه، وفيه نكابة بالمدو وخزي لهم، وإرغام لأنوفهم. روى الإمام أحمد، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرق^(١). ولفظ البخاري، عن ابن عمر قال: حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل من رجالهم وسبي وقسم نساءهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط (عبد الله بن سلام) ويهود بني حارثة وكل يهود بالمدينة^(٢). وفي «الصحيحين» عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَبَنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣). ولها يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وهان على سرة بني لؤي حريق بالبويرة مسنطير
قال أبو إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أخذ وبعد بئر معونة، وحكى البخاري عن الزهري عن عروة أنه قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر.

﴿وَمَا لِلَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلَّذِي فِي الْأَيْمَانِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُنْ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ بَيْنَكُمْ وَمَا لِلنَّاسِ مِنَ الشَّيْءِ فَخْذَةٌ وَمَا تَبَنَّيْتُمْ عَنْهُ فَأَنْتُمْ وَأَنْتُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢).

الفيه كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصالحة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم، فأفاه الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء فردّه على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآيات فقال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي من بني النضير، ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يعني الإبل، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء، ثم قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي فِي الْأَيْمَانِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ إلى آخرها والتي بعدها، فهذه مصارف أموال الفيء ووجوه.

روى الإمام أحمد، عن عمر رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿كَيْلًا يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء، كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرِّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما

(١) أخرجه أحمد ورواه الشيخان بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه الشيخان.

نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر. عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة أشيء وجدته في كتاب الله تعالى أو عن رسول الله ﷺ؟ قال: بل شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ، قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف، فما وجدت فيه الذي تقول، قال: فما وجدت فيه: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؟ قالت: بلى، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة، قالت: فلعله في بعض أهلكت، قال: فادخلي فانظري، فدخلت فنظرت، ثم خرجت، قالت: ما رأيت بأساً، فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه؟﴾^(١). وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله عز وجل. قال: فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها أم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت، قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى؟ فقالت: إني لأقرأ ما بين لوسجه فما وجدته، فقال: إن كنت قرأته فقد وجدته، أما قرأت: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؟ قالت: بلى، قال: فإن رسول الله ﷺ نهى عنه، قالت: إني لأظن أهلكت يفعلونه، قال: اذهبي فانظري، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كان كذا لم تجامعنا^(٢). وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»^(٣). وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

﴿يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُوقِرُوا﴾^(٤) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يُتَّقُونَ فَضَلًا مِنْ أَلْفٍ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَوْلَيْكُمْ هُمْ الصَّادِقُونَ^(٥) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنًا قَسِيصًا قَاتِلْهُ هُمُ الْمُطْلِقُونَ^(٦) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ لَكِنَّا أَصْحَابُ الدَّارِ وَالْإِيمَانِ سَبَقْنَا بِالْإِيمَانِ وَلَا نَجِدُ فِي قُلُوبِنَا إِلَّا لِبَاسًا مَا نَمُرُّ بِهَا إِلَّا أَنَّا نَحْنُ رِجَالٌ^(٧) رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ^(٨).

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال النبي ﷺ أنهم ﴿الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يتفقون فضلاً من الله ورضواناً﴾، أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه، ﴿وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين. ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة، فقال تعالى: ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم، قال عمر: «أوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن سيئهم»^(٩). وقوله تعالى: ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم، روى الإمام أحمد، عن أنس قال: قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهن، حتى لقد خشينا أن يذهبوا

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الشيخان وأحمد.

(٣) أخرجه في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري عند تفسير هذه الآية.

بالأجر كله، قال: «لا، ما أثبتتم عليهم ودعوتهم الله لهم»^(١). ودعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلهما، قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثره»^(٢). وقال البخاري، عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا»، فقالوا: أنكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا، «ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا» أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين، فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة، قال الحسن البصري: «ولا يجدون في صدورهم حاجة» يعني الحسد «كما أوتوا» قال قتادة: يعني فيما أعطى إخوانهم، وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى: «ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا» يعني مما أوتوا: المهاجرون، قال: وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال تعالى: «وما آفاه الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير» قال: وقال رسول الله ﷺ: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم»، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر»، فقالوا: نعم يا رسول الله، وقوله تعالى: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» يعني حاجة، أي يقدموا المحاويع على حاجة أنفسهم، ويدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل»، ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أقيت لأهلك؟» فقال رضي الله عنه: أقيت لهم الله ورسوله، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرداه الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم، وقال البخاري، عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامراته هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخرينه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهن وتعالى فأطفئي السراج وتطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله عز وجل - أو ضحك - من فلان وفلانة»، وأنزل الله تعالى: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»^(٣). وفي رواية لمسلم نسمة هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(٤). وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»^(٥). وقال ابن أبي حاتم، عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال:

(١) أخرجه أحمد في المسند.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري، ورواه مسلم والترمذي والنسائي بنحوه.

(٤) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

(٥) أخرجه أحمد وأبو داود.

يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت، فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذاك البخل، وبشر الشيء البخل^(١)، وعن أبي الهياج الأسدي، قال: كنت أطوف بالبيت فرايت رجلاً يقول: اللهم فني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه^(٢). وفي الحديث: «بريء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النابة»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفتي، وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان كما قال في آية براءة: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾، فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لأثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً﴾ أي بغضاً وحسداً. ﴿للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾، وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يبغض الصحابة ليس له في مال الفتي نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء، وقال ابن أبي حاتم، عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم فسبواهم، ثم قرأت هذه الآية: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ الآية^(٤)، وقال ابن جرير: قرأ عمر بن الخطاب: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ حتى بلغ «عليهم حكيم»، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى﴾ الآية، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿وما آفاه الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى﴾ حتى بلغ «والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم»، ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا وله فيها حق، ثم قال: لئن عشت لياتين الراعي وهو يسرو حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه^(٥).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَيُخْرِجَنَّ عَنْكُمْ وَلَا طَعْمَ فِيكُمْ أَسْمَاءُ ابْنَا وَلَيْ قَوْلُهُمْ لِلْعَمْرُوتِ وَاللَّهُ يَنْهَى عَنْهُمُ الْكَافِرِينَ﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ قُتِلُوا لَيَكُنَّ أَمْوَالُهُمْ لِلْأَعْيُنِ لَا يَصْرُوكَ﴾ كَانُوا أَشَدَّ رِقَابَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ أَمْرِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لَا يَنْتَابِرُكُمْ حِيثَ إِلَّا فِي قَرْيَةٍ ثَمَنَةً أَوْ فِي بَلَدٍ مُدْرَجٍ أَسْهَرُ مِنْهُمْ شَيْئُهُمْ حِيثَ وَأَقْبَرُكُمْ شَيْئُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ كَتَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرْيَةً فَاتُوا بِهَا أَمْوَالَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ آلِيَهُمْ كَتَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لَئِنْ كَانُوا كَفَرُوا قَالِ رَبِّ بَرِّءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ تَكَانَ حَقِيقَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي الشَّارِ عَقِبَتِي وَيَأْ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ﴾.

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه ابن جرير.

(٣) أخرجه ابن جرير عن أنس مرفوعاً.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير.

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير، يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا تطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصركم﴾، قال الله تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به، ولهذا قال تعالى: ﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ أي لا يقاتلون معهم، ﴿ولئن نصرهم﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ليولن الأديار﴾ ثم لا ينصرون، وهذه بشارة مستقلة بنفسها، ثم قال تعالى: ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله تعالى: ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾، ثم قال تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾ يعني أنهم من جنهم وعلعهم، لا يقدرُونَ على مواجهة جيش الإسلام، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة، ثم قال تعالى: ﴿بأسهم يثبهم شديد﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة كما قال تعالى: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿تحتسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف، قال إبراهيم النخعي: يعني أهل الكتاب والمنافقين ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾، ثم قال تعالى: ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم﴾، قال مجاهد والسدي: يعني كمثل ما أصاب كفار قریش يوم بدر، وقال ابن عباس: كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع، وهذا القول أشبه بالصواب، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلهم قبل هذا.

وقوله تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، كمثل الشيطان إذ سَوَّلَ للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتصل، وقال: ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾. روى ابن جرير، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأري بالليل إلى صومعة راهب، قال: فنزل الراهب فقبَّعَ بها، فحملت، فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها، فإني رجل مصدق بسمع قولك، فقتلها ثم دفنها قال: فأتى الشيطان إختها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا، فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك؟ قالوا: بل قصها علينا، قال: فقصها؛ فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الآخر: وأنا والله قد رأيت ذلك، قالوا: فوالله ما هذا إلا شيء، قال: فانطلقوا، فاستقروا ملكهم على ذلك الراهب، فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به، فلقبه الشيطان فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري، فاستجد لي واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه، قال: فاستجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل، واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو (برصيصا) فوالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدین فیها﴾ أي فكان عاقبة الأمر بالكفر مصيرهما إلى نار جهنم خالدین فيها ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ أي جزاء كل ظالم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْخَالِدِينَ فِيهَا ﴿٢٠﴾﴾.

عن جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاة عراة، مجتاهي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ، لما رأى بهم من الفاقة، قال: قد دخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن، وأقام الصلاة فصلّى، ثم خطب فقال: ﴿يا أيها

الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴿١﴾ - إلى آخر الآية، وقرأ الآية التي في الحشر - ﴿ولنتظر نفس ما قدمت لغد﴾ - تصدق رجل من ديناره من درهما، من ثوبه، من صاع بزة، من صاع تمره - حتى قال - ولو يشق تمره - قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كوميمن من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه، كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء»، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» (١)، فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أمر بتقواه، وهو يشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر، وقوله تعالى: ﴿ولنتظر نفس ما قدمت لغد﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، ﴿واتقوا الله﴾ تأكيد ثانٍ ﴿إن الله خير بما تعملون﴾ أي اعملوا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير، وقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم، فإن الجزء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك هم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، المخاسرون يوم معادهم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾.

خطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: «أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم، فمن استطاع أن يقضي الأجل، وهو من عمل الله عز وجل، فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل، إن قوما جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾، أين من تعرفون من إخوانكم؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم، وخلوا بالشقوة والسعادة، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة، واستضيئوا بسنائه وبيانه، إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾، لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا يتفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم» (٢). وقوله تعالى: ﴿ولا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ أي لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿لهم حسب الدين اجترحو السبaths أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾، وقال تعالى: ﴿لهم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وأصحاب الجنة هم الفائزون﴾ أي الناجون المسلمون من عذاب الله عز وجل.

﴿وَأَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَنفُسُ الضَّالَّةُ لِلنَّاسِ لَمَّا هُم بِمَفْكَرٍ ۚ ۝١١ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ وَالرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝١٢ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْمُنِيرُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٣ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٤﴾.

يقول تعالى معظما لأمر القرآن ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد: ﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

(٢) أخرجه الحافظ الطبراني، قال ابن كثير: إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات.

دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباري، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواحد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، الثواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، العصور^(١). وقوله تعالى: ﴿يَسْجُدْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي فلا يرام جنباه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره، عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ، وَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَصْلُونَ عَلَيْهِ حَتَّى يَمْسِيَ، وَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يَمْسِي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ^(٢)».

[آخر تفسير سورة الحشر، والله الحمد والمنة]

(١) أخرج بعضه الشيخان واللفظ للترمذي.

(٢) رواه الترمذي والإمام أحمد.